



الحرب تعريفاً يمكن أن تكون صراعاً بين طرفين أو أكثر على مسألة أو قضية معينة بأدوات محددة لأهداف بعينها يتربّع عليها نتائج على شكل مكاسب أو خسائر مادية ومعنوية. إذا ما وضعنا الحرب الدائرة في سوريا تحت المجهر، ربما نرى أن معظم عناصر هذا التعريف توشه إشكالات واختلافات في وجهات النظر والتحليل منطلقها أيديولوجي سياسي أو تحزبي.

ومن هنا قد يشوب وجهات النظر والتحليلات هذه صبغة من اللاموضوعية واللامعجمية، ولكن رصد الواقع والخوض بغماره كما هو قد يشفع لمبدأ الدقة والموضوعية في الطرح، وخاصة أن ما يحدث لم يُعلب بعد بصناديق التاريخ ، بل لا يزال وقائع يلمسها المتبع بأم عينه وحواسه الأخرى.

الأطراف واضحة على الأرض؛ والأدوات مرئية والأهداف تم البح بها. أما الأسباب والنتائج، فتبقي موضع نقاش واجتهاد حيث تدخل فيها عناصر التحليل والاجتهاد والقراءات، التي قد تكون متباعدة.

رغم إصرار السلطة في سوريا أن الشعب السوري ليس طرفاً في هذه الحرب، بل المؤامرة الكونية على سوريا؛ حيث ترى هذه السلطة نفسها تجسيداً لسوريا؛ وترى سوريا الدولة تجسيداً لها.

الأدوات أيضاً واضحة، وتعترف السلطة ذاتها باستثناء استخدامها للسلاح الكيماوي. وتعترف أيضاً أن أداة خصمها كانت بداية سلمية ثم تحولت إلى عسكرية ولكنها تنكر بالمطلق دورها بذلك.

في الأسباب أيضاً تنكر السلطة بالمطلق أحزمة الفقر وكبّت الحريات و الممارسات الاستبدادية والإجراءات الإقصائية التي كانت تمارسها على غالبية الشعب السوري والتي كانت السبب وراء صرخة الحرية في سوريا. وترى أن يداً خارجية تستهدف النظام "المقاوم والممانع" الذي يقف في وجه إسرائيل، إضافة إلى الدولة السورية الآمنة المستقرة ورغبة الأعداء نسف هذا الاستقرار الذي تعيشه الدولة. وتنسى بالمطلق أنها لو لم تكن تدرك أن رأس الفساد فيها كان الهدف وسبب تحرك الناس لما اتخذت قرارها قبل بدء الحراك بسحق كل صوت وحرق البلد أو يبقى الأسد.

قد يطول النقاش في هذه الأمور؛ ولكن تركيز هذه الورقة سيكون على النتائج التي تحصدتها سوريا بعد أربعة أعوام من مأساة لا شبيه لها في تاريخ البشرية رحاً وانتصاراً أو خسارة وانتكasaً على كل من طرف الصراع.

إن مناسبة الحديث في هذه المسألة إعلان جانب السلطة أنه ربح وانتصر ورفع شعاراً بإعلان شوارعي يقول: [فيك انتصرنا] تحت صورة لبشار الأسد. السؤال المركب في هذا السياق هو:
ما زاحت السلطة؟ وكيف انتصرت؟ وعلى من؟

- إذا كانت السلطة تنظر إلى الـ 23 مليون سوري على أنهم من رعاياها، فهل وجود نصفهم خارج حدود سوريا انتصار؟
 - هل خروج 70% من الأرض السورية عن سيادة الدولة، وفقدان سيطرتها على 90% من معابر الدولة انتصار؟
 - هل تعطيل 90% من الطاقة البشرية العلمية والاقتصادية والمعرفية السورية انتصار؟
 - هل السمعة التي تتمتع بها السلطة على أنها مصدر الإرهاب والمصدر له مكسب أو انتصار؟
 - هل خسارة ما يقارب ترليون دولار ودمار نصف البلد مكاسب؟
 - هل وجود ربع مليون سوري في أقبية السلطة مكسب؟
 - هل تدمير حزب الله الذي كان يُنظر إليه كقوة مقاومة لمحتل الأرض مكسب؟
 - هل العيش على حساب دول لها مصالح معينة كروسيا وإيران انتصار للسلطة؟
 - إذا صر القول بأن النظام كان حامياً لحدود إسرائيل الشمالية بحكم محافظته على هدوء مع الكيان المحتل لأربعة عقود؛ وإذا كان قد فقد القوة للحفاظ على تلك الحدود، فأي انتصار هذا الذي يجعله يفقد مهمة أو وظيفة حيوية ساعده في صموده في وجه سعي الشعب لإسقاطه؟
 - هل استغباء الجميع ومحاولة إقناعهم بأن النظام في عداوة مع داعش وأنه ليس من المساهمين في صناعتها انتصار؟
 - وإلى أي درجة ينطلي ذلك حتى على أنصار النظام؟
 - هل تحويل سوريا إلى مقاطعات لأمراء الحرب انتصار؟
 - وهل يُنظر للعصابة الحاكمة في دمشق أكثر من إمارة من إمارات الحرب المتحكمة فوق الأرض السورية.
 - أي انتصار هذا إذا كان انقطاع الدعم الإيراني أو الروسي عن العصابة لمدة 24 ساعة كفيل بهروبها كالالفئران في كل اتجاه؟
 - أي انتصار هذا ومجموعة مقاتلة إجرامية كحزب حسن نصر الله تقول بعظامه لسانها: لو لا حزب الله لسقط النظام؟
 - أي انتصار ومن تبقى حول النظام بفعل الخوف وانعدام سبل الخروج يكسرون ما تبقى من أثاث بيوتهم للحصول على شيء من الدفء؟
 - أي انتصار هذا الذي يترك 700 ألف ممن يحملون "هوية الجمهورية العربية السورية" معدين؟
 - إذا أقرينا أن الطرف الآخر في الحرب هو شعب سوريا، وإذا سلمنا بأنه تعرض لكل تلك الخسائر التي ذكرت؛ وإذا أضفنا إليها أن من تنطبع لتمثيله والحديث باسمه هم أيضاً إضافة ثقيلة على خسائره، فهل هناك أي انتصار حقه؟
 - * انتصاره الأساسي أنه المظلوم والمضطهد والدافع لثمن لم يدفعه شعب في العالم؛ وهذا بحد ذاته ذخيرة مستقبلية تجلب له الدعم والرعاية وضرورة الإعادة للحياة بفعل الإحساس بالذنب تجاهه، فهو ليس مجرماً ولا قاتلاً لخصمه.... الطرف الآخر في النزال السلطة
 - * عدم استسلامه للطغيان وعدم اعترافه بهكذا سلطة هو بحد ذاته انتصار.
 - * لابد من تسديد الفاتورة التي دفعها ... وترجمة ذلك تصميماً وإرادة إلى العودة إلى الحياة مقابل يأس الجانب الآخر بامكانية أي عودة طبيعية إلى الحياة بعد سجل حافل بالدم.

إسرائيل لم تتمكن حتى الآن من إعلان انتصارها على الفلسطينيين - ولن تتمكن - رغم أن هؤلاء ليسوا من طينة العصابة المحتلة لبلدهم كما أنت؛ فما بالك بأن من تقاومهم هم من الطينة ذاتها، ولا موطن لهم إلا سوريا.

كلنا شركاء

المصادر: